جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة المستنصرية

الحِكمة في شِعرِ ابنِ الخطيب (ت٧٧٦هـ)

إعداد
م.م. محمّد عبد الامير العبيدي

١٤٣٠هـ **٢٠٠٩ م**

الحِكمة في شعر ابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ)

الحكمة وهي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، يقال لمن يُحسن دقائق الصناعات ويُتقنها : حكيمٌ. وجاء في الحديث الشريف : (إنَّ من الشِّعر حكمةً)(١) أي أنَّ في الشعر كلاماً نافعاً ينهى عن الجهل والسَّفَه، وقيل : أراد بها المواعظ والأمثال التي ينتفع بها الناس(٢) . ومعنى ذلك أنَّ الحكمة تعنى بتهذيب الأخلاق وترشد إلى المُثُل السامية وكلّ ماينفع المجتمع.

والعرب تقول حَكَمْتُ وأحْكَمْتُ بمعنى مَنَعْتُ ورَدَدْتُ، ومن هذا قيل للحاكم حاكمٌ لأنّه يمنع الظالم من الظلم . ويقال : حَكِّمِ اليتيمَ أي امْنَعْهُ من الفساد وأصلحه، وكلّ من مَنَعتَهُ من شيءٍ فقد حَكّمْتَهُ وأحْكَمْتَهُ (٣)، وكذلك الحكمة أو الحكيم فإنّها تمنع من الخُلُق الرذيل والقيم الفاسدة، وبذلك تؤدّي وظيفة أخلاقية اجتماعية تربوية، إذ (تأمر الحكمة بكلّ ما يُحمد في البدء أثره ويطيب عند الكشف خبره ويؤمن في العواقب ضرره)(٤)

والحكمة ليس لها معجمٌ ينهل منه الشاعر ما يشاء ويضمّنه في قصائده، وموهبة الشاعر وحدها لا تكفي لجعل شعره تبرز فيه شخصيته كحكيمٍ، إذ لابدّ أن تكون ثمّة أسباب تُعين الشاعر على قول الحكمة، فالمعاني مطروحة أمام الشاعر ولديه التغطية اللفظية لتلك المعاني ولكن يبقى الأسلوب التعبيري الفيصل في إظهار الشعر بألوان من الحكمة .

كان ابن الخطيب ذا ثقافة واسعة، فقد كان فقيهاً عارفاً بعلوم الشريعة وأصول الدين، وقرأ القرآن حفظاً وتجويداً على أبرز علماء عصره، ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير، وتعلّم الطبّ والفلسفة(٥)

وكانت ثقافته متينةً في ميدان الفلسفة والمنطق الذي يعتمد إقامة الحجج وإتيان البراهين، وهو ماله علاقة بالحكمة التي تتعامل مع الإدراك العقلي

فضلاً عن أنّ الشعر الحكمي يكاد يكون فلسفياً لأنّه محمّلٌ بأفكار الشاعر وتأمّلاته ومواقفه عارضاً إيّاها بقالب الشعر الجميل(٦)، وتأليفه كتاب (روضة التعريف بالحبّ الشريف) خير دليلٍ على أنّه كان عالماً في التصوّف ومذاهب الفلاسفة .

وكان متشبّعاً بالثقافة العربية في جميع عصورها وحافظاً لكثير من الشعر العربي منذ الجاهلية وحتّى عصره(٧) وممّا قيل فيه إنّه كان (شيخ أهل البلاغة في العلوم العقلية والنقلية، يُضرب به المثل كتابةً وشعراً وأدباً ومعرفةً بسائر العلوم سيما علم التاريخ)(٨)، ومعرفته بعلم التاريخ وما فيه من الدروس والتجارب لها صلة بشكل أو بآخر بموضوع الحكمة التي تبحث في العبر والعظات أيضاً .

وبذلك نهل ابن الخطيب من القرآن الكريم واللغة والأدب والتاريخ والطبّ والفلسفة والمنطق لتقوم له ثقافة في المجالات المذكورة ولتمتزج مع تأمّلاته حتّى أخذت الحكم والمواعظ

تتناثر في شعره .

وتعدّ الحياة المعلّم الأكبر للشاعر، فهي تملي عليه بمواقفها كلّ يوم درساً وبمرور السنوات يكون قد اكتسب خبرةً في معظم الجوانب الحياتية في ضوء التجارب التي خاضها والتي بلغت من العمق ما يؤهّلها للامتزاج بفكره الذي أخذ هو الآخر بالتطوّر على مرّ الوقت حتّى إذا صدر عنه نتاج أدبي أفرغ فيه صدى التأملات يُعينه في ذلك أسلوبه الأدبي، أي أنَّ الحكمة (ثمرة التطوّر الفكري الممتزج بالإبداع الفنّي)(٩).

والأديب حين يكتسب الخبرات وتتبلور عنده المواقف حتّى يبلغ مرحلة النضج يكون قد طوى شبابه وبلغ مرحلة الشيب التي تعدُّ من أخصب المراحل على صعيد النتاج الأدبي (ففيها يُقدّم الأديب جماع خبراته وأحسن أعماله الأدبية وأعمقها)(١٠) وبذلك تكون الحكمة قد ارتبطت بهذه المرحلة المتأخّرة من العمر، ويكون الشيب أحد أسباب نظمها .

وكان لداء الأرق الذي أصيب به ارتباط وثيق بموضوع الحكمة، إذ كان لاينام من الليل إلاّ اليسير، ونعلم أنّ الليل أفضل وقتٍ للتأمّل الطويل والتفكّر العميق في حقائق الأشياء .

وقد حلّت بابن الخطيب أثناء مسيرة حياته مِحَن وبلايا، حيث وفاة زوجته واغترابه في المغرب وتلمسان وسلا بعيداً عن الوطن الأمّ غرناطة، وغربة النفس في السجن وعذابه، كلّ تلك المصائب جعلت له فلسفةً خاصّة في التأمّل والتفكّر ترجمها إلى شعر حكميّ .

وبذلك تعدّ الحكمة في شعر ابن الخطيب مجموعة من التجارب والدروس المستخلصة من الحياة والمصاغة بأسلوب أدبي متضمّنة مفاهيم دينية وأخلاقية واجتماعية وتربوية .

وقد عالج في شعر الحكمة بعض القيم الروحية كالدنيا والقضاء والقدر والدهر وثنائية الحياة والموت، وجوانب اجتماعية ونفسية مسبغاً عليها من نظراته التأملية وإدراكاته العقليّة .

ووردت الحكم في ثنايا شعر ابن الخطيب، ولم تأخذ فنّاً مستقلاً بذاته، إذ جاءت ضمن قصائد الرثاء والمديح والحبّ وغيرها من الأغراض الشعرية .

وأخذت الحكمة في شعره مسارين، تمثّل الأول بإطلاق الحكمة القائمة على السليقة والفطرة من خلال النظرة إلى الحياة وفلسفتها، وهو ما كان شائعاً في قصائده، وتمثّل المسار الآخر بإيراد الحكم المستندة إلى البراهين والأدلة المنطقية، وهو الذي كان قليل الورود لأنّ الشاعر غير ملزمٍ بالتوضيح المفصّل لكلّ فكرة أو معنىً يطرقه، فشعر الحكمة ليس شعراً تعليمياً أو شعراً فلسفياً يعالج قضية أو نظرية ما، ويكفيه من ذلك إيماءٌ ولمحة .

المبحث الاول
الحكمة والقيم الروحيّة

كانت لابن الخطيب وقفات تأمّل في الوجود وقوانينه وما أُعدّت له من مشكلات ومشاقّ، حيث الدنيا محلّ الابتلاء، وقهر القدر الذي يبقى مجهولاً عن أعين البشر، وسطوة الأيام وهي توجّه إليهم الضربات بين الحين والآخر، والحياة التي يرقبها الموت ثمّ القبر وما بعده، شدائد وأزمات دعته إلى التفكّر فعلى سبيل المثال بيّن في **موضوع الدنيا** أحوالها غير المستقرّة ليذكّر الواثق في دوام سرورها بخيبة الظنّ وبالتالي لا يغترّ بها ويتهيّأ لما بعد الرخاء من مصائب، حيث قال: (١١)

ومَنْ كان بالدنيا الدنيّةِ واثقاً على حالةٍ يوماً فقد باءَ بالخُسْرِ

وحطّ من قدر متاعها فهو على الرغم من كثرته قليل ولاسيما عند مقارنته بنعيم الآخرة، إذ قال :(١٢)

ولكنّها الدنيا قليلٌ متاعُها ولذّاتُها دَأباً تَزُوْرُ وَتَزْوَرُ

وتجسيد لذّات الدنيا بامرئٍ غدا ثمّ راح تنبيه إلى زوالها، وهو تجسيد يشعر بالحسرة لأنّ اللذّة حين تُمحق بالكدر فإنّ هذا الكدر يوجع صاحبه ويذكّره بأيام التنعّم. وأوضح كيفية النظر إلى الدنيا والتعامل معها قائلاً : (١٣)

ومَنْ باعَ ما يَبْقَى بِفَانٍ فإنّما تَعجَّلَ في دُنياهُ صَفْقَةَ خُسْرانِ

فالدنيا تجارة إمّا ربح وإمّا خسارة وما المرء إلاّ تاجر فيها، وهو تمثيل يجعل الإنسان حريصاً على عدم تضييع دنياه ولاسيما عند تذكيره بالصفقة الخاسرة لأنّه سوف يقرن حزن التاجر على خسارته الدنيوية بخسارة الآخرة وما تجلب من حسرات لسوء تعامله فيجعل الدنيا سبباً في تحقيق النجاح الأخروي، ومثلما ذكّر بالخسارة ترهيباً وعد بالربح ترغيباً فقال:(١٤)

وَمَنْ باعَ ما يفنى بِبَاقٍ مُخَلَّدِ فقد أَنْجَحَ المَسْعَى وقد رَبِحَ التَّجْرُ

ومن الحقائق التي بيّنها عن الدنيا أنّها جالبة الهموم فقال : (١٥)

مَنْ يَبِتْ من غُرُورِ دُنيا بِهَمٍّ يَلْدَغُ القلبَ أكْثَرَ اللهُ هَمَّـه

وكأنّه يقول : من يريد الهموم فَلْيركن إلى الدنيا وليجعل أمله فيها، ليلوّح بحكمته إلى طريق آخر يجلب الراحة والطمأنينة وهو الرغبة عن الدنيا وعدم تعليق الآمال فيها.

والتلويح وحده لا يكفي، لذلك قال مُزهِّداً : (١٦)

فلا تَقْنَ ما يفنى تَعِشْ وادِعَ الحَشَا أبى الدهرُ أنْ يبقى على الدَّثِرِ الفاني

صديقُ الفتى إنْ حقّق الحقُّ روحهُ فكم نسبةٍ ما بين روحٍ وجُثمانِ

لمّا زهّد وضّح غنيمة الزهد (وادع الحشا) وحقيقة ما يزهّد فيه (الدثر الفاني) لتكون الاستجابة

مضمونة، وربط هذا التزهيد بثنائية الروح والجسد لأنّ الذي يغنم التنعّم الروح، أمّا الجثمان فيلحقه الدثور والفناء .

واستقرأ تجارب الناس مع قضية الروح والجسد واستخلص درساً مثّله بقوله :(١٧)

جُنِنتم بما يفنى وتبقى مَضَاضةٌ تُعذِّبُ بعد البَينِ مُهجةَ مشتاقِ

وتربط بالأجسامِ نفساً حياتُها مبايعة الأجسام بالجوهر الراقي

فلا هي فازتْ بالذي علقتْ بِهِ ولا رأسُ مالٍ كان ينفَعُها باقي

حكمته مفادها تحقيق الموازنة بين حاجات الروح ورغبات الجسد وعدم قصر العناية على الجسد دون الروح لأنّ بعد الممات يفارق الروح البدن فيفنى البدن وتبقى الروح مُعذَّبة بتقصيره، وخسارة أن يُعذَّب خالدٌ بذنب فانٍ، والنهاية أنّ عاشق الدنيا خاسر لا هو الفائز بمَن عشق فمعشوقه زائل ولا العشق جالبٌ منفعةً تُنجيه من أهوال القيامة .

ومثّلت هذه الأشعار دعوة زهدية إلى ترك الدنيا والإقبال على الآخرة، والزهد (من الموضوعات التي احتلّت حيّزاً كبيراً في الشعر الأندلسي، ومذهبه يقوم على عدّة معانٍ لكنّها تتركّز في موضوعين الأول منهما: ذمّ الحياة الدنيا وثانيهما الترهيب من الحياة الآخرة)(١٨)

وعلم ابن الخطيب أنّ النفس الإنسانية تعيش بين شدّتي ابتلاء الدنيا وشهوات النفس وأنّها في تيهٍ بينهما ممّا جعله ذلك يقف عند تربية النفس وترويضها على الطاعة فقال :(١٩)

اللهَ في نَفْسِكَ أولى مَنْ لَهُ ذخرتَ نُصْحاً أو عِتاباً يُقْبَلُ

لا تَتْرُكَنْها في عَمَىً وحَيْرةٍ عن هَوْلِ ما بينَ يَدَيها تَغْفَلُ

حقّرْ لَهَا الفاني وَحَاوِلْ زُهْدَها فيهِ وشَوِّقْها لِمَا يستقبلُ

وَقُدْ إلى اللهِ بِهَا مُضطرّةً حتّى تَرَى السَّيْرَ عَلَيْها يَسْهَلُ

يبدو حرصه الشديد على سير المرء باستقامة في ضوء تنويعه بأساليب الطلب وتكراره (لاتتركنها، حقّر، حاول، شوّقها، قُد)، فَتَرْكُ النفس في ملذّاتها يودي إلى التمادي، فلابدّ أن تُزهّد بذكر نعيم الآخرة لتشتاق إليه، وتؤخذَ إكراهاً من هواها حتّى تألف الصبر عن المعاصي ويُضمن لها الصلاح، حيث قال :(٢٠)

إنّ الهوى لشكايةٌ معروفةٌ صبرُ التصبّرِ من أجَلِّ علاجِها

والنفسُ إنْ أَلِفَتْ مَرَارَةَ طَعْمِهَا يوماً ضَمِنْتُ لها صَلاحَ مِزَاجِهَا

وكانت **<u>قضية الحياة والموت</u>** تدعو بكلّ تفاصيلها إلى التأمّل، فحبّ الحياة لا يموت عن قلب ابن آدم وآماله تطول وإن كان لا يسعها قصر العمر، ثمّ موت ينتظره غير مُستثنٍ من أحكامه أحداً، وليس يدري متى تحين قيامته؟ وماذا أُعِدَّ له بعد الممات ؟

مصير مجهول وتساؤلات عدّة أخذت نصيبها من تأمّلات ابن الخطيب بسبب حقيقة الموت الكبرى، حقيقة كان حتماً إقرارها في شعره لحتمية وقوعها إذ قال :(٢١)

والحتفُ غايةُ مَنْ يروحُ ويغتدي فإذا فَرَرْتَ إليهِ منهُ المَهْربُ

ولمّا كان حبّ الحياة مغروساً في الإنسان وهو الميّال إلى الخلود فيها حاول ابن الخطيب أن ينتزع من الصدور هذه الأمنية فقال :(٢٢)

لا فَوْتَ عن دَرْكِ الحِمَامِ لِهَاربٍ والناس صَرْعَى مغْركِ الآفاتِ

صوّر الناس صرعى على الأرض وفيهم الهارب من منيّته ليؤكّد سطوة الموت على البشر، وجاء بإنذارٍ آخر عن قانون الموت الصارم الشامل فقال :(٢٣)

ما فوق وَجْهِ الأرضِ نفسٌ حيّةٌ إلا قد انقضَّ عليها أجَلُ

. . . . . .

ما ثَمَّ إلاّ لُقْمةٌ قد هُيّئتْ للموت وهو الآكلُ المُستَعْجِلُ

فليس الإنسان سوى فريسة ينقضّ عليها الأجل كانقضاض الصقر أو البازي على الصيد، واستعار للإنسان كلمة(لُقمة) وهذه اللقمة قد هُيّئت لمَن سوف يَلْتَهمها وهو الموت الذي استعار له أيضاً كلمة (الآكل) المستعجل ليومي إلى أنّه لا يؤخّر ولا يُمهل أحداً، وبذلك اكتمل مشهد الحتف في الأذهان بوجود الطرفين الآكل والمأكول(الموت والإنسان)، وبيّنت الاستعارة في البيت الأخير هوان الإنسان على الموت وجعلته أذلّ من الفريسة لأنّ الفريسة قد تهرب من مفترسها أو تقاومه وإن كان الموت نهايتها، أمّا اللقمة فلا حول لها عن ردّ آكلها .

والأديب الحكيم هو الذي يرسّخ بتصويره مشهد الموت في مخيّلة الناس ويزيد من رهبته حين يذكّرهم باقتراب موعده، وهذا ما فعله ابن الخطيب حين قال :(٢٤)

والمُلْتَقَى كَثَبٌ وفي وِرْدِ الرَّدَى نَهَلَ الوَرَى مَنْ شاءَ ذلك أو أبَى

هناك زمنٌ في البيت يمضي، فلفظة (كثب) تُشعر بأنّ لحظة الموت تقترب شيئاً فشيئاً من النفس لتفصلها عن الجسد وتعود بها إلى موطنها الأصلي، قال :(٢٥)

وما هي إلاَّ أنفس مستعارةٌ ولا بدَّ يوماً للعواريِّ من ردَّ

فالمرء لا يملك حتّى النفس التي بين جنبيه لأنّ حقيقتها عارية وسوف تُردّ، أمّا إذا حان موعد ردّ الودائع فإنّ المنايا لا تخطئ الرمي، إذ قال :(٢٦)

سِهامُ المَنَايا لا تَطيشُ ولا تُخْطِي وللدهرِ كَفٌّ تَسْتَرِدّ الذي تُعطي

وإنّا وإن كُنّا على ثَبَجِ (٢٧) الدُّنا فلا بدّ يوماً أنْ نَحِلَّ على الشطِّ

وقد لجأ إلى وسيلةٍ صوتية لخدمة مضمون الموت تمثّلت في التصريع (تُخطي، تُعطي) الذي يشدّ انتباه المتلقّي ولاسيما أنّ قضية الحياة والموت تحتاج إلى التنبيه وعدم الغفلة .

وذو الخبرة يعرف بما تحدّث به صاحبه من التغرير بالآمال وتسويف التوبة فيغفل عن ساعة الموت لذلك قال:(٢٨)

وسجيّة الإنسانِ ليس بناصلٍ من صبغها حتّى يرى مرموسا

يغترُّ مهما ساعَدَتْ آماله فإذا عَرَاهُ الخَطْبُ كان يؤوسا(٢٩)

ورؤية العمر وهو ينقضي تثير الروع والحسرات لأنّ الإنسان يُقاد إلى حقيقة موجعة، حيث الموت وتوديع الدنيا نحو اللحود، فحاول ابن الخطيب صرف التفكّر في انقضاء العمر وسيره نحو الممات إلى التفكّر بعمر آخر يهوّن رحيل العمر الفاني فقال :(٣٠)

وما العمر إلاّ زينة مستعارة تُردُّ ولكنّ الثناء هو العمرُ

وفكرة العمر الحقيقي المتمثّل بالثناء محاولة أيضاً لتخفيف وطأة الرهبة من الموت ولاسيما أنّ الموت مرتبط (بانفعالات عنيفة ومشاعر جيّاشة واتجاهات سلبية تتجمّع معاً مكوّنة ما ندعوه بإيجاز قلق الموت)(٣١) لذلك دعا الإنسان إلى أن يصنع من العمر الزائل عمراً خالداً يتمثّل بالثناء عليه بعد وفاته، وفي ذلك دعوة إلى سموّ الأعمال الطيبة على الأعمال الخبيثة لأنّ الثناء لا يكون إلاّ عن عملٍ حسنٍ، ومن الأعمال التي تجلب الثناء ما ورد في قوله :(٣٢)

إذا المرء لم يشرِ الثناء بما اقتنى فكلّ كثيرٍ يقتنيه قليلُ

بيّنت حكمته أنّ المرء يمكنه ترك ذكرٍ له من خلال بذل المعروف سواءً بالمال أم بغيره ممّا يملك، وإن لم يفعل فإنّ كلّ ما يملكه لا يساوي إلاّ نزراً يسيراً لأنّه لم يجلب ثناءً ولا ذكراً، بمعنى أنّ الكريم له عمر آخر والبخيل لا عمر له حيث لم يبذل شيئاً يُتكلّم به على مرّ الزمن، وفي قوله تلويح بصفتي الكرم والبخل وارتباطهما بفكرة العمر الثاني .

واليأس لما يطوي ذات الأديب تتسلّل الحكمة إلى أدبه ولاسيما عند اليأس من الحياة حيث تلتقي غربة النفس مع اليأس لتبدو الحكمة مزيجاً من تأمّل وألم، وهذا ما وجدناه في آخر شعر قاله ابن الخطيب في سجنه :(٣٣)

بَعُدْنَا وإنْ جَاوَرَتْنا البُيُوتْ وَجِئْنَا بِوَعْظٍ ونحنُ صُمُوتْ
وأنفاسُنا سَكَتَتْ دَفْعَةً كَجَهْرِ الصلاةِ تَلاَهُ القُنُوتْ
وكُنّا عِظَاماً فَصِرْنَا عِظَاماً وكُنّا نَقُوتُ فَهَا نحنُ قُوتْ
وكُنّا شُمُوسَ سَمَاءِ العُلا غَرِبْنَ وَنَاحَتْ عَلَيها البُيُوتْ
فكم جَدّلَتْ ذا الحُسامِ الظُّبَى وذا البَخْتِ كم خَذَلَتْهُ البُخُوتْ
وكم سِيْقَ للقبرِ في خِرْقَةٍ فَتَىً مُلِئَتْ منْ كُساهُ التُّخُوتْ
فَقُل للعِدا: ذَهَبَ ابنُ الخطيبِ وَفَاتَ وَمَنْ ذا الذي لايَفُوتْ؟!
فَمَنْ كانَ يَفْرَحُ مِنْكُمُ لَهُ فَقُلْ: يفرحُ اليومَ مَنْ لايَمُوتْ

فاليأس خيّم على أجواء القصيدة وغربة النفس واضحة في ضوء شعوره بالابتعاد عن أهل الدنيا على الرغم من مجاورة البيوت له، أمّا الموت وهو دافع قول الحكمة فقد توقّعه لنفسه وهو في سجنه وقرّره أكثر من مرّة (بعدنا، وكنّا، ذهب ابن الخطيب)، فجعل من محنته وتجربته المرّة درساً في قسوة الموت التي تسيّر مالئ الدنيا سناءً وسناً في خرقة إلى قبره .

ونجد في أبياته أيضاً تلميحاً بقوى الدهر التي نقلت حياته من حال إلى حال، **فالدهر والزمان** من القوى التي تأهّبت للإنسان كي تملأ عليه الحياة خطوباً وأرزاءً، ولم يكن للأديب ما يدفع به الأذى عن نفسه سوى الشكوى التي تعدّ (من الظواهر القديمة العريقة في الأدب العربي)(٣٤) ولكنّا لا نجد ابن الخطيب شاكياً، وهو دليل على سكينة نفسه التي أسّرت شكواه في صدره، ومردّ ذلك إلى الحلم الذي يعدّ شكلاً من أشكال الحكمة .

والأديب ذو الحكمة من أفادته مصائب الدهور في تكوين نظرات تأمّلية تكشف له النقاب عن حقيقة الدهر فيعرف الدهر بالدهر ثمّ يجسّد ذلك شعراً تتراءى من بينه الحكم والمواعظ، سئل أحد الحكماء: (ما أفادك الدهر ؟ قال: العلم به)(٣٥)

وقد أفادنا ابن الخطيب بأشعار بيّنت طباع الدهر مع البشر فعلى سبيل المثال قال :(٣٦)

والأمرُ أمري والدنيا مُسخّرةٌ وكُلُّ قَصْدٍ بِهِ الإسعادُ مُقترَنُ

حتّى تَنَبّهَ جفنُ الدهرِ مِنْ سِنَةٍ والدهرُ مُضطَرِبٌ والحُرُّ مُمْتَحَنُ

نقل تجربته الذاتية لينفع بها عامّة الناس حتّى لا يأمنوا دوام حال الدهر وإن كان العيش ينبئ بالتنعّم والإسعاد، فالدهر يغفل لا للغفلة وإنّما ليتبع الغفلة تنبّهاً ويأخذ الإنسان على غرّة لأنّه الممتَحَن بابتلائه .

ولكي يقرّر في الأفهام حقيقة الدهر المتلوّنة استعان بإحدى صفات المنافق قائلاً في قصيدة رثاء :(٣٧)

هو الدهرُ ذو وجهَيْنِ يومٌ وليلةٌ ومَنْ كانَ ذا وَجْهَينِ يعتبُ في غَدْرِ

اتّضح تذبذب الدهر وتقلّبه بمقولة ذي الوجهين، وثمّة رسالة تنبيه نستشفّها في البيت وهو توقّع المكروه من الدهر في أيّ وقت مثلما يُتوقَّع الغدر من المنافق نتيجة تلوّنه مع الناس .

ومن المصائب التي يُنزلها الدهر بالناس مصيبة الموت، أي أنّ مضمون الدهر تداخل في مضمون الموت وتشابهت أحكام الدهر والموت في إخضاع الغنيّ والفقير لسطوتيهما، قال في قصيدة رثاء :(٣٨)

هو الدهرُ يجري في البَرِيّةِ حُكْمُهُ فَعِزُّ الغنى سِيّانِ أو ذِلّةُ الفَقْرِ

وقد عمد إلى تكرار لفظة (ذو وجهين) ليؤكّد تذبذب الدهر وتقلّبه وينبّه إلى توقّع المكروه منه في أي وقتٍ كما يتوقّع الغدر من المنافق نتيجة تلوّنه مع الناس .

وارتبط الدهر بالموت حين بصّر الناس بعداء الدهر وأنّه لا يسامح أحداً وأنّ أحواله متقلّبة فقال ناصحاً :(٣٩)

كُنْ من صُرُوفِ الردى على حَذَرِ لا يقبلُ الدهرُ عُذْرَ مُعتَذِرِ

ولا تُعَوّلْ فيهِ على دعةٍ فأنت في قلعةٍ وفي سَفَرِ

فُكُلّ رِيٍّ يُفْضِي إلى ظَمَأٍ وَكُلُّ أمْرٍ يدعو إلى غَرَرِ

وكُلُّ حَيٍّ فالموتُ غَايَتُهُ وَكُلُّ نَفْعٍ يُدنِي إلى ضَرَرِ

كم شامِخِ الأنفِ ينثني فَرَحَاً بَالَ عَلَيْهِ زَمَانُهُ وَخَرِي

نلاحظ في الأبيات تزاحم أحد الفنون البديعية وهو الطباق، وقد استدعى المعنى ذلك، فالدهر أحواله تتقلّب بين النفع والضرّ وتنتقل من الريّ إلى الظمأ، وأحكامه يتساوى فيها شامخ الأنف والوضيع، ولمّا كان الدهر يُنزل بالمرء الحال وضدّه جاء الطباق الذي يجمع بين الأضداد موفياً بالغرض .

ونظم ابن الخطيب شعراً في تهنئة أبي الحجّاج بهلاك طاغية الروم سنة (٧٥٠هـ) وممّا جاء فيه قوله :(٤٠)

ولا تُبْعِدِ الأمرَ البعيدَ وُقُوعُهُ فإنّ الليالي أُمَّهَاتُ العَجَائِبِ

فالمناسبة تدعو إلى السرور لأنّ الموضوع تهنئة لكنّ ابن الخطيب بحكمته لم يجعل أجواء القصيدة كلّها فرحاً، فنغّص الفرح إلى حدٍّ ما بتحذيره من صروف الليالي حتّى لا يغرق المسرور بسروره فيستبعد النوائب وينسى ما تُضمر الأيام .

ويعدّ نُصْحُه أبا الحجّاج رسالة تذكير إلى كلّ ملك وصاحب شأن بإمكانية وقوع الرزايا في ساحتهم لجرأة الدهر عليهم، وهو نصح مستمدّ من رصده تجارب الأفاضل والأحرار الذين طالتهم يدا الليالي، إذ قال :(٤١)

وهي الليالي لا تَزَالُ صُرُوفُها يَشْقَى بِمَوْقِعِهَا الكريمُ المَاجِدُ

هناك استمرارية في محاربة الدهر هذه الطائفة من الناس نجدها في قوله (لا تزال صروفها)، أي أنّه لن ينفكّ عن الإساءة إليهم، فحربه على البشر دائمة إلاّ أنّ ابن الخطيب أعلن أنّ الخاسر في هذا الصراع هو ابن آدم فقال :(٤٢)

وَمَنْ رَابَحَ الأيّامَ يا ابنةَ عامِرٍ يَجوبُ الفَلاَ فُلّتْ يَدَاهُ بِتَفْلِيْسِ

وإعلان خسارة الإنسان أمر طبيعي لأنّ ضعفه إزاء جبروت الدهر حقيقة لا ريبة فيها، ولكن غايته من ذكرها متعلّق بما تخلّفه الخسارة والانهزام من آثار سلبية في النفوس وسبيل التخلّص منها، ومن تلك الآثار قوله :(٤٣)

الدهرُ أضيَقُ فُسْحَةً من أنْ يُرَى بالحُزْنِ والكَمدِ المُضَاعَفِ يُقْطَعُ

وإذا قَطَعْتَ زَمَانَهُ في كُرْبَةٍ ضَيّعْتَ في الأوهامِ مَالا يَرْجِعُ

فالحزن كما بيّنه ابن الخطيب غير مجدٍ لأنّه لا يردّ ما فات من أيام الرخاء ولا يدفع الشدّة التي هو فيها، وقد يجرّ الحزن إلى البكاء، أي أنّ المصيبة بدأت تكبر في النفس، وهذا يتطلّب تقريراً مباشراً يوضّح كيفية التعامل مع الحادثة، قال :(٤٤)

إذا ذَهَبَتْ يَمينُكَ لا تُضَيّعْ زَمَانَكَ في البُكَاءِ على المُصيبَة

وَيُسْرَاكَ اغْتَنِمْ فالقوسُ تَرْمي ولا تَدري أَرَشْقَتُها قَرِيْبَة

وما بِغَريبةٍ نُوَبُ الليالي ولكنّ النجَاةَ هي الغَرِيْبَة

أرشد المبتلى إلى القناعة بما أبقت له المصائب وعدم البكاء على ما أخذت منه، وذكّره بصورة غير مباشرة بأنّه في خير ما دامت الأيام أبقته وتركت له شيئاً لأنّ الغرابة ليست في وقوع النوائب وإنّما في النجاة منها .

وعلم أنّ من الناس مَنْ لا يقوى على حبس أوجاع الدهر في صدره فتخرج تلك الأوجاع بهيئة تذمّر وشكوى، فخاطب الشاكي قائلاً :(٤٥)

ياصاحِ لا تَبْكِ عَهْداً للوِصَالِ مَضَى عنّا حَميداً وأوطاراً وأوطَانَا

هَوّنْ عَلَيكَ فَمَا الشكوى بِنَافِعَةٍ وَكُلُّ صَعْبٍ إذا هوّنتَهُ هَانَا

بيّن للشاكي في البداية بأنّ الشكوى لا تنفعه شيئاً ليقلع عنها ثمّ علّمه الحديث مع النفس وإقناعها بهون ما نزل من الخطوب حتّى تقنع، وبذلك يخفّ وقعها عليه ويتمكّن من جبر الانكسار النفسيّ الحاصل جرّاء الحزن .

ووقف عند موضوع المغترب الذي أبعده الزمان فأسكنه داراً غير وطنه فقاسى آلام الغربة والوحشة ولاسيما أنّه ممّن مرّت به نائبة الاغتراب مبتعداً عن وطنه غرناطة فوجد ما يهوّن تلك النائبة قائلاً :(٤٦)

إذا فكّرتَ في وَطَنٍ كَريمٍ نَبَتْ بِكَ عَنْهُ نائبةُ اغتِرَابِ

وَعَوّضَكَ الزمانُ بِشَرِّ دارٍ وسُكْنَى مَنْزِلٍ وَحْشِ الجَنَابِ

فابْدِ بِمَا انْتَقَلْتَ لَهُ اغتِبَاطاً وَفَكّرْ في انتِقَالِكَ للتُّرَابِ

رأى تذليل الغربة بإبداء الابتسامة أو الفرح ولو عن جرحٍ وذلك للسلوّ عن الاغتراب، وذكّر الغريب بأنّ سفره عن بلاده وقتيّ وأنّ هناك سفراً طويلاً غربته أدهى وأقسى وهو ما بعد وداع الدنيا، أي أنّ ابن الخطيب عرض له سفرين دنيويّ وأخرويّ لينشغل بالسفر الثاني ورهبته وبذلك يهون عليه السفر الدنيوي ووحشته .

ولمّا كان الإنسان الخاسر الوحيد أمام قوى الدهر والزمان وكانت الأرزاء تنهال عليه من كلّ جانب أصبحت اللحظة التي يسامح فيها الزمان ثمينة لا يمكن التفريط فيها لذا دعا ابن الخطيب إلى استغلالها والتمتّع بها إن تهيّأت فقال :(٤٧)

وَخُذْ ما بِهِ جادَ الزمانُ مُسامِحاً ولا تترُكْ يومَ السرورِ إلى غَدِ

وَسِرْ في مَرَاحِ اللهِ مُقْتَصِرَ الخُطَا وكُنْ لِنَوَالِ اللهِ مُنْبَسِطَ اليَدِ

وهناك سبب آخر في عدم ترك السرور نجده في قوله :(٤٨)

فَبَادِرْ إلى اللذّات من قبلِ فوتِها فمهما تولّتْ ساعةٌ مالها رَدُّ

وكانت **قضية القضاء والقدر** قد حيّرت الإنسان وأعجزته عن وضع تفسير منطقيّ لها والوقوف على حقيقتها، فبقيت عقدتها ببقاء القدر سرّاً خافياً عن البشر.

ووقف لسان الدين على هذه المشكلة متأمّلاً فيها ليس لحلّ عقدتها وإنّما ليوجّه الآخرين نحو طبيعة التعامل مع نزول الأقدار وسبل الاحتراز عن الاعتراض عليها، وربّما جعل من تجربته الذاتية وسيلةً لإيصال حكمته في هذا الجانب قائلاً :(٤٩)

قد غَزَتْنِي الخُطُوبُ غَزْوَ الأعَا دِي وَبَرَتْنِي الهُمُومُ بَرْيَ قِدَاحِ

سَبَقَ الحُكْمُ واستقلّ وهل يُمـ حَى قَضَاءٌ قد خُطَّ في الألواحِ ؟!

أكّد أنّ الخطوب التي تركت في نفسه هموماً كان وقوعها مكتوباً في اللوح المحفوظ منذ الأزل فلن يتغيّر القضاء لأنّ القلم رُفع عن اللوح وجفّت صحائفه .

وذكّر المرءَ بالذي قدّر الأقدار وبمضيّ أحكامها في البشر، فقال في بعض الأمراء:(٥٠)

إذا همَّ أمضى اللهُ في الأرض حُكْمَهُ وما لِقَضَاءِ اللهِ في الأرضِ من رَدِّ

بيّن قوّة الأقدار وضعف الإنسان عن مقارعتها من خلال نفيه ردّ القضاء الذي نسبه إلى الله تعالى تحذيراً من الاعتراض على ما قُدِّر لأنّه هو المُقدَّر، وقد اتّسم الأدب الأندلسي شعره ونثره بإلقاء السلم للأقدار والانقياد لها(٥١) لأنّها من الله سبحانه وهو الذي يبرم الأمور فلا يستطيع العبد أن ينقضها، إذ قال :(٥٢)

وليس لأمرٍ أبْرَمَ الله نـاقضٌ وليس لمَسْعى النّجْحِ في الله إخفاقُ

وذِكْرُه مسعى النجح دفعٌ للمرء نحو مساعي الخير وعدم التردّد في ذلك السعي لأنّه من القدر الذي يحبّه الله ويعين عليه .

ونظر إلى وقوع القدر بعين الحكمة وأرشد الناس إلى هذه النظرة العقلانية قائلاً: (٥٣)

ولله فينـا سِرُّ غَيْبٍ وَرُبَّمَا أتَى النَّفْعُ من حالٍ أريدَ بِهَا الضرُّ

فالمصيبة الواقعة لا تؤخذ بظاهرها على أنّها شرٌ فقد يجيء الخير منها، وهو في ذلك يعتمد الموروث الديني المتمثّل بقوله تعالى ﴿ وَعَسَى أنْ تَكْرَهوا شيئاً وهُوَ خَيْرٌ لَكُم وعَسَى أنْ تُحِبُّوا شيئاً وهو شَرٌّ لَكُم ﴾ (البقرة : ٢١٦) .

وكرّر بطريقة أخرى مسألة النظر بفطنة إلى وقوع القدر لكي يرسّخها في العقول موجّهاً الوعظ في الوقت ذاته بتوكيل الأمور إلى الله تعالى لأنّ لطفه لا يضيق عمّن نزلت به الأقدار فقال :(٥٤)

فَكِلِ الأمورَ إذا اعترتْكَ لربّها ما ضاق لُطْفُ الرّبِّ عن مَربوبِ

قد يخبأ المحبوبُ في مَكْروهِهَا مَنْ يخبأ المكروه في المحبوبِ

وضرب مثالاً عن المكروه الذي يخبأ النفع فيه حين وعظ رجلاً أُصيب بالجذام فقال :(٥٥)

تَعَزَّ فَمَا ثَمَّ مِنْ كَائِنٍ يُصاحِبُـهُ الكَوْنُ إلاّ فَسَد

وقد يَتَأتّى صَلاحُ النفوسِ وَتَطْهيرُها بِفَسَادِ الجَسَد

إذ بيّن غنيمة النفس من قدر المرض، فالابتلاء الجسدي قد يكون سبباً في إصلاح النفوس،

فالنفس عند المرض تكون منكسرة ضعيفة، فيكون سهلاً رجوعها إلى خالقها بعد أن كانت في أيام الصحّة سادرة في غيّها .

وبعد أن عرض هيمنة الأقدار وكيفية النظر إليها بيّن العلّة في تعرّض الإنسان لنوازل القدر من خلال تجربة الفراق التي حلّت به، إذ قال معلّلاً النفس :(٥٦)

وعلّلتُ نفسي باللقاء فإنّني لآملُ لُطْفَ الله جَلّ جلالُهُ

وما الحرُّ إلاّ مَنْ يُعَاني ضَرُورةً فيبدو عليها صَبْرُهُ واحْتِمَالُهُ

إذن الغاية من تعرّض الإنسان لصنوف الأقدار امتحان صبره وطاقة تحمّله ولينظر الله أيرضى العبد أم يسخط ، بمعنى أنّ القدر بالنسبة إلى ابن الخطيب اختبارٌ يُعرف به صبر المرء من عدمه لذلك حثّ على الصبر واللجوء إلى الله تعالى وذلك ليضمن للمرء نجاحه في هذا الامتحان، إذ قال في قصيدة رثاء :(٥٧)

والصبرُ أولى ما اسْتَكَانَ لَهُ الفَتَى رَغْماً وَحَقّ العبدِ أنْ يَتَأَدَّبَا

وإذا اعْتَمَدْتَ اللهَ يوماً مَفْزَعاً لم تُلْفِ منهُ سِوَى إليهِ مَهْرَبَا

ومبدأ الصبر مستمدّ من التراث الدينيّ، وقد أراد أن يبيّن للناس قيمته في النائبات فقال:(٥٨)

فإذا جعلتَ الصبرَ مَفْزَعَ مُعْضلٍ عاجَلْتَ عِلّتَهُ بِطِبٍّ طَبِيبِ

وقد تطول بالمرء الشدّة فيضعف صبره ولا يقوى على الاستمرار، وهذا يحتاج إلى بثّ الأمل في النفس التي بدأت تقترب من الإحباط وتنأى عن الشعور بالفرج القريب، وقد أدرك ابن الخطيب هذا التقلّب النفسي فقال :(٥٩)

واليُسْرُ بعد العُسْرِ مَوْعُودٌ بِهِ والصبرُ بالفَرَجِ القريبِ مُوَكَّلُ

إنّ اقتران اليسر بالعسر دليل على ثقته بانجلاء الكروب، وهي دعوة إلى ترقّب الفرج وعدم اليأس وذلك لإشغال النفس عن الجزع والسخط على القدر، وأكّد ذلك أيضاً في قوله :(٦٠)

لعلّ فارسَ تُحْيِيْني مَكَارِمُهُ إنَّ الشدائدَ يأتي إثْرَهَا الفَرَجُ

المبحث الثاني
الحكمة والقيم الاجتماعيّة

انضوت تحت اصطلاح القيم الاجتماعية موضوعات عدّة عالجها ابن الخطيب في شعره، أبرزها : الحبّ والصداقة والدعوة إلى المثل العليا ومنها الحقّ والعدل والوفاء، والقضاء على المساوئ الاجتماعية كالكذب والغدر .

وكان **موضوع الحبّ** من الموضوعات الإنسانية التي تناولها بأسلوب عاطفي عقلاني، عاطفي فرضته طبيعة الموضوع المرتبطة بالقلب ورقّته ولأنّه كان يتحدّث عن تجربته الذاتية، وعقلاني متمثّل بخبرته الطويلة في قضايا الحبّ ولاسيما أنّه ألّف كتاباً سمّاه (روضة التعريف بالحب الشريف) فالتأليف في حبّ الله دليل معرفته بما يقابله من الحبّ الإنساني، وقد أخضع بحكمته الحبّ لمنطق العقل وجعله حبّاً روحياً لا جسدياً طارقاً فيه جوانب عديدة منها طيّ السرّ والميول النفسية .

وتتّضح درايته في الحبّ بصورة جليّة في ضوء مخاطبته الناس بصيغة الأمر:(٦١)

سَلُوا عن الحُبّ من قلبي مُجرّبَهُ فما المُقلّدُ يوماً مثلُ مُجتَهِدِ

دلّ قوله على تجاربه العميقة التي أهّلته لأن يكون في الحبّ كالعالم المجتهد في الدين والشريعة، إذ أمر الناس بأن يسألوه عن الحبّ وأسراره لثقته المطلقة بحضور الجواب .

ومن ضمن ما أفادهم به عن حقيقة الحبّ قوله :(٦٢)

عَرَفْتُ الهوى حُلْواً ومُرّاً مَذَاقُهُ وما صادقٌ في حُبّهِ مثلَ مُدَّعِ

إنّ مكابد الصبابة غير مدّعيها، فالذي قاسى عَرفَ العشق أحوالاً ومعاناة، وذاق حلاوته واكتوى بلظاه، والتجربة الصادقة في الحبّ تتضح بالأعراض التي تنتاب المحبّين ومن تلك الأعراض التي أشار إليها قوله :(٦٣)

وكم كَتَمْتُ وأسْرَرْتُ الهوى زَمَناً طيَّ الجوانحِ حتّى خانني جَلَدي

وشيمةُ النفسِ إنْ اخفتْ سَريرتَها بَدَتْ شَوَاهدُها يوماً على الجَسَدِ

فاستحالة كتمان الحبّ من علامات المحبّ، وسرّه مفضوح في جوارحه، ومهما حاول طيّه أبى الجسد إلاّ افتضاحه سواءً بصفحات الوجه أم على نحو ما قيل في منطق العيون :(٦٤)

العينُ تُبدي الذي في نَفْسِ صَاحِبِها من المَحَبّةِ والودّ الذي كَانا

والعينُ تنطقُ والأفواهُ صَامِتَةٌ حتّى تَرَى من ضَمِيرِ القَلْبِ تِبْيَانا

ويدلّ قوله على مقدرته في استقراء بواطن النفوس الولهى لأنّ صاحب الفراسة وحده من تبدو له شواهد الحبّ من خلال ربطه بين دواخل المرء ومظهره الخارجي .

وكان ابن الخطيب عارفاً بما يعتري المحبّ من حرقة ولوعة ولاسيما أنّه ممّن دخل العشقُ قلبه، وعالماً أيضاً أن ليس له بدّ للخلاص من نيرانه، لذا لم تكن ثمّة حيلة سوى توجيه

نداءٍ للقلب بالصبر وتسليته بأنّ هذه النار كنار إبراهيم بردٌ وسلامٌ، إذ قال:(٦٥)

يا قلبُ لا تُذْهِشْكَ نيرانُ الهَوَى فَكَنَارِ ابراهيمَ تلكَ النارُ

فاصبِرْ على ما حمّلُوا تَنَلِ المُنَى بالسَّبْكِ أدْرَكَ نَقْشَهُ الدينارُ

لقد وظّف في البيتين أساليب النداء والنهي والأمر إلى جانب فنَّي التشبيه والاستعارة لخدمة المعنى، فأوّل ما ابتدأ به مناداة القلب، والقلب وإن كان أقرب شيء إليه فقد ناداه بـ(يا) للبعيد وكأنّ المنادى تائه مُحَيَّر بسبب الهوى أي بعيد غير متأهّبٍ للاستجابة، وبعد ندائه القلب نهاه على سبيل الإرشاد عن التعجّب من نار الهوى بعدما استعار للهوى كلمة(نيران) المحسوسة للدلالة على مُدرَكٍ فكريّ وهو ما يحدث في دواخل النفوس ويلتهبُ، وحينما جسّد الإحساس الباطني بالنار حاول أن يهوّن منها ويجعل القلب يستأنس بها فشبّهها بالنار التي أُلقي فيها النبيّ إبراهيم (عليه السلام) إذ كانت برداً وسلاماً

ثمّ جاء بالأمر (فاصبر) مبيّناً أثر الصبر في تذليل نار الهوى وفي ضوء عرضه صورة مادّيةً تمثّلت في عملية السبك التي يتمّ بها تطويع الدينار، فضلاً عن أنّه عرض حكمته بأسلوب منطقيّ يقوم على الحجّة والبرهان كما يفعل الفلاسفة، وذلك حين استدلّ على تحقيق المنى بالصبر بسبيكة الدينار التي تحمّلت نار السبك حتّى بلغت شكلها النهائي، وذكره سبك الدينار رَسَمَ صورةً ذهنية للنار ولفحها لتومي إلى محنة المحبّ في صبره، لذلك على المرء تحمّل المرّ ليبلغ مناه كما تحمّل الدينار النار.

وبحكم ثقافته الدينية الواسعة وتأليفه كتاباً في الحبّ الشريف حذّر من الحبّ الذي يسيّره الهوى فقال :(٦٦)

والهوى مَرْكِبُ الهَوانِ إذا هَمْـ ـلَجَ في مَلْعَبِ الصِّبا والجَهَالَه

فالعذاب والهوان نهاية كلّ حبّ جسدي غير عفيف لأنّ الجهالة والطيش كانا يقودانه، وقد أشار إليه في روضته أيضاً ليوسّع من نطاق تحذيره فقال :(**الهوى هَوَان، وحِمَام له ألوان، دمع ساجم ووجد هاجم...**)(٦٧).

وضَمِنَ للإنسان الأمنَ من الوقوع في شرك الحبّ الصوري الذي يعنى بصورة الجسد وذلك في قوله :(٦٨)

إذا ما النَّفْسُ مالَتْ نَحْوَ حُسْنٍ فقد خَطَرَتْ على خَطَرِ الوُلُوعِ

فإنْ أحْسَسْتَ بالمَيْلِ ادّرِكْهَا فَمَا بَعْدَ المَمِيْلِ سِوَى الوُقُوعِ

عرف ابن الخطيب النوازع النفسية وميلها نحو الحسن والجمال فأمر بقهر رغبة النفس عند لحظة إحساسها بالميول، أي اللحظة التي يكون فيها للعقل تحكّم وقرار لأنّ بعد الميل لا ينفع درء النفس باستشارة العقل حيث وقعت في الهوى .

وبيّن أثر نظرات العين في جذب النفس وولعها بالشيء، إذ بجنايتها يتأثر القلب فيميل

ويشقى، لذا دعا إلى تماسك القلب قدر المستطاع لئلاّ يميل ويقع فقال :(٦٩)

إذا صرفتَ نَحْوَ وَجْهٍ حَسَنٍ طَرْفَكَ واسْتَهواك للحينِ الطَّمَع

فلا تُمِلْ قلبَكَ ما اسْطَعْتَ لَهُ فالقلبُ كالحائِطِ إنْ مالَ وَقَع

نجد في شعره ظاهرة أسلوبية تجسّدت في الالتفات، إذ انتقل الشعر من أسلوب الخطاب (صرفتَ) إلى أسلوب الغائب (واستهواك) ليلفت المتلقّي بعد مخاطبته إلى أنّ إدامة النظر تودي إلى الطمع في الشيء والولوع به، ثمّ عاد مرّةً أخرى يخاطبه بأسلوب النهي (لاتُمل قلبكَ) مشبّهاً القلب بالحائط ليشعر الإنسان بحقيقة الميل فيحذر الانقياد لِهَوَاه، لذا كان الغرض من إتيانه التشبيه إثارة الحذر والخوف في النفس ولاسيما عندما ذَكَر حالاً للمشبّه به تمثّلت بلفظة (وقع)، وكما أنّ رؤية الجدار وهو ينقضّ وتتناثر لبناته تثير التألّم والحزن فإنّ الحال ذاتها تنتاب الإنسان عند وقوع القلب في شرك الهوى .

وقد استدلّ بأسلوب فلسفي على أثر لحظ العين في فتك القلب حرقة وولعاً فقال :(٧٠)

أرى كلّ فَتْكٍ للّحاظ انْتِسَابُهُ وهان مضاءً ليس فيه لها حظُّ

ألم تَرَ أنَّ السهْمَ غيرُ مُقَرْطِسٍ ولا صَائِبٍ حتّى يُسدّدَهُ اللحْظُ

حيث استدلّ على ما ذهب إليه بالرامي حين لا يسدّد سهمه نحو فريسته حتى تقدّر العين وتوعز بالرمي .

وكان **<u>موضوع الصداقة والصديق</u>** من الموضوعات الاجتماعية التي وقف عندها ابن الخطيب وقفة الخبير ذي الفراسة فهو القائل :(٧١)

لكنْ لَدَيّ فراسةٌ مَعْضُودَةٌ فإذا ظَنَنْتُ فإنّها لا تَكْذِبُ

فعالج المضمون منطلقاً من فراسته وعمق تجاربه في هذا الميدان وكثرتها ليبدو الشعر بألوان من الحكمة المنسابة والتجارب المصوغة بأسلوب أدبيّ، إذ قال :(٧٢)

كِلْنِي لِعِلْمِي في صِحَابي إنّني بِهِمُ خَبيرٌ ماهِرٌ وَمُجرِّبُ

لَكَ ظاهِرٌ منهُمْ حَكَمْتَ بِهِ وَلِي منهم بواطن عن عيانك غُيّبُ

سيّانِ منهُمْ وَاصِلٌ أو هَاجِرٌ أو عاذرٌ أو عاذلٌ ومُؤَنِّبُ

مهما جَفَانِي صاحبٌ في الناس لي سَعَةٌ وفي عَرْضِ البسيطةِ مَذْهَبُ

لا تَسْتَقِرُّ على التَنَافُسِ صُحْبَةٌ وَمَوَدّةُ الأكفاءِ أمرٌ يَصْعُبُ

والماءُ إن أَلِفَ الثَّوَاءَ تَغَيّرَتْ أوْصَافُهُ وَعَلا عليهِ الطُحْلُبُ

نجد شخصية الحكماء بارزة في أبياته التي شهدت له بالخبرة وكثرة التجارب مع الأصدقاء حتّى استخلص من تلك التجارب أنّ الواصل والقاطع سواءٌ، فلا فرق بين صديق وعدوّ، وهي حكمة يعتريها النَّفَس التشاؤمي والنظرة السوداوية إلى الأصدقاء، وهذا يعكس تجربته الذاتية التي لم تحظَ بالأخلاّء .

ومن ضمن ما أفادنا به من تجاربه أنّها لا تنجح أو تدوم إذا كان فيها بغضٌ وتنافس وأنّ تحقيق المودّة فيها أمر صعب، وهذه هي حال صداقة الكُتّاب وأهل السياسة، ونستدلّ على صحّة كلامه بما ورد في رسالة الصداقة والصديق عن صداقة الكُتّاب: (وأمّا الكُتّاب وأهل العلم فإنّهم إذا خلوا من التنافس والتحاسد والتماري والتماحك فربّما صحّت لهم الصداقة وظهر منهم الوفاء وهذا قليل وهذا القليل من الأصل القليل)(٧٣).

ويبدو أنّ معالجته موضوع الصداقة يعود سببه إلى افتقاده الخُلّة الطيبة والأصدقاء الأوفياء وإلى كثرة الأعداء ولاسيما من أقرب الناس إليه ممّن تلوّنوا في صحبتهم وإخلاصهم حتّى قال :(٧٤)

تَلَوّنَ إخواني عَلَيَّ وقد جَنَتْ عَلَيَّ خُطُوبٌ جَمّةٌ ذاتُ ألوانِ

وما كُنتُ أدري قبلَ أنْ يَتَنكّرُوا بأنّ خواني كان مجمعَ خواني

وكفى دليلاً أنّ الذي تولّى محنته وقتله تلميذُه الذي ربّاه، ابنُ زمرك (ت ٧٩٣هـ)، وإذا كانت منزلته الأدبية والسياسية قد كوّنت له صداقات وزادت لأدبه الكثير من شعر الإخوانيات(٧٥) فإنّها صنعت له أعداءً وحسّاداً وبذلك بقدر ما نفعته تلك المنزلة فقد ضُرَّ بها، فأصبحت الصداقة بالنسبة إليه شيئاً غريباً أو نادراً، فأكمل قصيدته البائية قائلاً:(٧٦)

إنَّ الصداقَـةَ لفظـةٌ مدلولُها في الدهرِ كالعَنْقَاءِ بل هُوَ أغْرَبُ

كم فِضّـةٍ فُضّتْ وكم مِنْ ضَيْعَةٍ ضَاعَتْ وكم ذَهَبٍ رَأيْنَـا يَذْهَبُ

إلاّ الصداقـةَ فهي ذُخْرٌ خالِدٌ أسْمَى وأسْنَى ما اكْتَسَبْتَ وتَكْسِبُ

نجد في قوله تمجيداً للصداقة التي حُرم منها، فليس الذهب بأبقى منها ولا الفضّة، فالذهب يذهب والفضّة تفضّ وتبقى الصداقة الذخر الخالد .

ووقف على جوانب اجتماعية بارزة مضيفاً عليها من نظراته التأمّلية، من ذلك تناوله موضوعاً له أثر في إرساء لغة التفاهم والمحبّة بين أفراد المجتمع ثمّ توطيد العلاقات الاجتماعية، وهو آداب الحديث مع الناس، فقال محذّراً من العاقبة التي يخلّفها عدم الالتزام بهذه الآداب :(٧٧)

إذا مِقْوَلُ الإنسانِ جَاوَزَ حَدّهُ تَحَوّلَتِ الأغراضُ مِنْكَ إلى الضدِّ

فأصبحَ مِنْكَ الجدُّ هَزْلاً مُذَمَّمَـاً وأصبحَ منهُ الهَزْلُ في صُورةِ الجدّ

فالهذر في القول وإن كان في الجدّ قد يدخل الكلام في المزاح فيتحوّل الغرض من الجدّ إلى الهزل، وكثرة الكلام تعني كثرة الأخطاء، وقد تفضي مجاوزة الحدّ في المحادثة إلى العداوة والبغضاء، وكم من حرب جُنيت بلفظة، ولا يخفى أنّ كثرة الكلام تُذهب للمرء هيبته لذا خير الكلام ما كان قليل اللفظ دليلاً إلى المعنى .

وربّما يكون الصمت خيراً من الكلام في بعض الأحيان وذلك في حالةٍ أشار إليها ابن

الخطيب في قوله :(٧٨)

نَظَرْتُ فَلَم أفْهَمْ وَحُقّ لِنَاظِرٍ إذا لم يَجِدْ فَهْماً بأنْ يَلْزَمَ الصَّمتَا

من أدب التحدّث حفظ المرء لسانه إذا لم يفهم قصد المتكلّم لأنّه إن تكلّم فيما لم يفهم بدرت منه فلتات وسقطات تجعل منه عرضة للإحراج أو التوبيخ وربّما الندامة على الكلام .

وتطرّق إلى ما يشوب الأحاديث ممّا له آثار سلبية في زعزعة الثقة بين الناس وهو الكذب، فنهى عنه قائلاً :(٧٩)

أخِي لا تَقُلْ كَذِباً إنْ نَطَقْتَ فللناسِ في الصِّدْقِ فَضْلٌ وَضَحْ

وَخَفْ إنْ كَذبْتَ طُرُوَّ افتِضَاحٍ فَمَا كَذَبَ الفَجرُ إلاّ افْتَضَحْ

نرى ابن الخطيب يجعل من شعره أداة لمحاربة كلّ ما ينغّص الوئام الاجتماعي من الصفات الذميمة التي تباعد بين أفراد المجتمع وتمزّق النسيج الاجتماعي، ومن تلك الصفات الغدر إذ قال :(٨٠)

والغَدْرُ شَرُّ سَجِيّةٍ مَذْمُومةٍ شَهِدَ الحكيمُ بِذاكَ والمُتَمَلّلُ

نلاحظ في أقواله دعوة إلى الفضائل السامية والأخلاق الحميدة، فالنهي عن الكذب معناه الأمر بالصدق والحطّ من صفة الغدر إعلاءٌ للوفاء، ومن المسائل التي حاول القضاء عليها والتي عرضها بطريقة النقد الاجتماعي مؤاخذة البريء بجريرة غيره فقال:(٨١)

وما العدلُ أنْ يأتيَ امْرُؤٌ بِجَرِيرَةٍ فَيُؤخَذَ في أوزَارِهَا جَارُ جَنْبِهِ

لأنّ العدل يتحقّق في معاقبة المذنب على ذنبه وليس على البريء قصاصٌ، أي أنّه يدعو إلى محاربة الظلم، وبالمقابل إحياء الحقّ، إذ قال :(٨٢)

والحقُّ يُغْنِي عَنْ شَهَادَةِ شَاهِدٍ أنّى يُرَامُ على الصَّبَاحِ دَليل ؟!

وحاول نشر روح الصفح والمسامحة بين الناس في ضوء دعوته إلى العفو والإشارة إلى العلاقة السببية بينها وبين الذنب، فقال :(٨٣)

والعفوُ عنْ سَبَبِ الذنُوبِ مُسبَّبٌ لولا الجِنَايَةُ لم يَكُنْ غُفْرَانُ

ومن الأمور التي عرف أثرها في تقوية الترابط الاجتماعي، عدم توجيه الملام إلى من يبذل المجهود المناط به ويخفق أو يقصّر في إتمامه، إذ قال :(٨٤)

وإذا الفَتَى أدّى الذي في وُسْعِهِ وأتَى بِجُهْدٍ ما عَلَيْهِ مَلامُ

فالساعي لا يلام إذا لم يحقّق شيئاً من سعيه أو لم يتمّه وقد أدّى ما تستطيع عليه نفسه، وهذه دعوة إلى التماس العذر للآخرين وتقدير ما بذلوه من جهدٍ، فقال :(٨٥)

ولكنّنا نأتي بِمَا نَسْطِيْعُهُ وَمَنْ بَذَلَ المَجهودَ حُقّ لَهُ العُذْرُ

وحينما دعا إلى العفو والمسامحة لم تغفل خبرته الاجتماعية عن مخاطبة المسيء وتوجيه النصح إليه سواء المسيء لنفسه أم لغيره فقال :(٨٦)

وإنّ أحقّ الناسِ باللوم لامْرُؤٌ يَضِلُّ طَرِيقَ الرشدِ وَهْوَ على عِلْمِ

إذ جاء بأكثر من توكيد (إنّ واللام) لحاجة المعنى إليه، فمضيّع سبيل الهدى على علمه به جاحد مُصِرٌّ على طغيانه، فكان لابدّ من الإتيان بأكثر من توكيد .

وبذلك استطاع ابن الخطيب أن يوسّع من دائرة التآلف الاجتماعي ويدعو إلى التقارب الإنساني جاعلاً من شعره وسيلة لتغيير المجتمع نحو الحياة الكريمة غير متغافلٍ عن الإشارة إلى طبيعة حصول هذا التغيير في ضوء إرشاده الذات قبل الآخرين فقال :(٨٧)

قَعَدْتُ لتذكيرٍ ولو كُنتُ مُنْصِفاً لذكّرتُ نفسي فهي أحْوَجُ للذكْرَى

إذا لم يَكُنْ منّي لنفسي واعِظٌ فياليت شِعْرِي كيف تفعل في أخرى؟!

نستشفّ من قوله أنّ تغيير المجتمع لا يكون جماعياً أو دفعة واحدة وإنّما يبدأ من الإصلاح الذاتي أي يبدأ من الفرد، فيحاسب نفسه قبل محاسبة الآخرين، وهذه إشارة أيضاً إلى أبرز الشروط التي يجب أن يملكها الواعظ ليكون كلامه مؤثّراً في الجمهور، فالذي ينهى عن خلُق لابدّ أن يكون مجتنبه وإلاّ فلن يستجيب لوعظه أحد .

أمّا محاسبة النفس وتذكيرها بقصد الإصلاح فإنّه ليس بالأمر الهيّن، فتهذيب النفس للسموّ بها نحو الفضائل والقيم العليا مطلب عزيز لا يسعى إليه إلاّ مجاهد النفس ذو الهمّة العالية، أي أنّ المطالب تختلف باختلاف النفوس، فأراد ابن الخطيب أن تكون نفس الإنسان سامية حتّى تعزّ مطالبها أي تطلب القيم المثلى وتنبذ الخُلُق البذيء، إذ قال:(٨٨)

وهِمّةُ المَرْءِ تُغليهِ وتُرخِصُهُ مَنْ عَزَّ نَفْساً لقد عَزّتْ مَطَالِبُهُ

ماهانَ كَسْبُ المعالي أو تَنَاوُلُها بل هانَ في ذاك ما يَلْقَاهُ طالِبُهُ

والنفس حين تتقى ويعلو مقامها فإنّها ترفض كلّ ما يسيء إليها ويرضي مطالب الهوى، ولو خُيّرتْ بين الثراء عن طريق التملّق وبين أن تبقى أبيةً ولكن تقاسي الفقر لاختارت إباءها والفقر، وهذا ما بيّنه ابن الخطيب في قوله :(٨٩)

إذا كنتُ بالإثراءِ لي في تَمَلّقٍ رَضِيْتُ بِعِزّ النفسِ في عِزّ إمْلاقِ

أراد تربية النفس على الأخلاق النبيلة وإيثار التفكير الروحي على التفكير المادّي الجسدي وتحقيق التوافق بين قيمة المال ومبادئ الإنسان، ونلمح معنى عميقاً عن كيفية إنماء الحكمة في النفس، فالفقر سبب يوصل إلى الحكمة أمّا المال أو الإثراء فلا يجتمع مع الحكمة أو العقل، ومن أجل ذلك قال لقمان الحكيم :(إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة)(٩٠)، وقال أفلاطون: (إنّ الله تعالى بقدر ما يعطي من الحكمة يمنع الرزق)(٩١) .

وأخذت مسألة السلوك الإنساني نصيبها من حكم ابن الخطيب متّخذاً الشيخ الكبير المحور الذي تدور عليه حكمته إذ قال :(٩٢)

إذا لم تُهَذّبْكَ الأبُوّةُ والحَجُّ فأنتَ على فَوْتِ الجَنِي ثَمَرٌ فِجُّ(٩٣)

فالشيخ يجب أن يوافق سلوكه مرحلة عمره، لذا يستقبح عليه التصابي وتصرّفات الشبيبة لأنّه بلغ مرحلة الرزانة والوقار، وإذا لم يتّصف بسلوكيّات هذه المرحلة فإنّه شيخ غير ناضج ولا هيبة منه، فالرجل الكبير لا يُجلّ منه الشَّعَر الأبيض وإنّما المهاب عقله .

المبحث الثالث
الحكمة والقيم السياسيّة

كان ابن الخطيب مفكّراً سياسياً بارعاً، يعرف عن آداب المُلك والسياسة الكثير، حتّى صرّح في شعره بثقافته السياسية قائلاً :(٩٤)

لا تَتّهِمْني إنّني مُمْتَلٍ مِنْ حِكَمِ المُلْكِ وآدابِهِ

وكان ذاك بفضل اتّصاله المباشر بالوزارة وتقلّده رئاسة الوزراء سنوات عدّة ممّا له أثر كبير في الاطلاع على أحوال الملك ومشكلات الرعية والشؤون السياسية للبلاد فضلاً عن الأزمات التي كانت تعترض سبيل الدولة والنظر في تصرّفات السياسيين نحو كلّ موقف وأزمة .

وممّا قاله وشهد له بالخبرة الطويلة في مجال السياسة ما خاطب به أحد الملوك قائلاً:(٩٥)

أهْدِيْكَ منْ أدَبِ السياسةِ ما بِهِ تَبْأى المُلُوكُ على الملوكِ وَتَفْضُلُ
لا تَغْفَلِ الحَزْمَ الذي بِعِقَالِهِ إبلُ الإمارَةِ والإدارَةِ تُعْقَلُ
واجعلْ صُمَاتَكَ عِبْرَةً فيما مَضَى وَعَليهِ قِسْ من بعدِ ما يُستَقْبَلُ
والأمرَ تَحْقِرُهُ وقد يَنْمِي كَمَا تَنْمِي الجُسُومُ على الجُسُومِ وَتَعْبَلُ
فاحْذَرْ صَغيرَ الأمرِ وَلْتَحفَلْ بِهِ وإذا غَفَلْتَ فإنّهُ يَسْتَفْحِلُ
فالنارُ أولى ما تَكُونُ شَرَارَةً والغيثُ بعدَ رَذَاذِهِ يَسْتَرْسِلُ

فأوّل ما ابتدأ به في وصيّته الحزم، لأنّه السبب الرئيس في بقاء الدولة واستمرارها، وغياب الحزم يدفع ثمنه انهيارها وحياة متولّيها لذلك أكّد في موضع آخر قائلاً :(٩٦)

وإنْ أضَعْتَ الحَزْمَ لم تَنْفَلِتْ مِنْ ظَفَرِ الحَيْنِ وَمِنْ نَابِهِ

فلا بدّ للملك أن يكون حازماً لا يترك صغائر الأمور استخفافاً بها لأنّ الأمر الحقير يكبر ويستفحل وبعدها لا يمكن السيطرة عليه، واستدلّ على قوله بالنار التي أوّلها شرارة والمطر المسترسل الذي كان الغيث بدايته، وهو استدلال منطقي .

واستمرّ في وصاياه حتّى قال :(٩٧)

شَاوِرْ إذا الشورى دَعَتْكَ أولي النُّهَى فَخِطَابُ غيرِ أولي النُّهَى لا يَجْمُلُ
واجْزِ المُسِيءَ إذا أساءَ بِفِعْلِهِ والمُحْسِنَ الحُسْنَى جَزَاءً يَعْدِلُ

أمره بالأخذ بنظام الشورى وتحديداً مشاورة أولي النهى لأنّ مشورة الجهّال لا تحلّ مشكلة سياسية ولا تعالج ظرفاً طارئاً، لذا تعدّ استشارة أصحاب الخبرة من صفات السياسيّ الناجح، وركّز على مبدأ الشورى الذي يهدي إلى كلّ قصد يُسعى إليه فقال في موضع آخر:(٩٨)

وَشَاوِرْ أولي الشورى إذا عَنَّ مُعضلٌ فَمَنْ أعْمَلَ الشورى فَمَا ضَلَّ عَنْ قَصْدِ

ثمّ أمره بالعدل بين الرعية ومعاقبة المسيء على قدر إساءته والإحسان إلى المحسن، ونَشْر

فضيلة العدل لها انعكاس إيجابيّ في المجتمع كان ابن الخطيب يعلم بثمرته، يتمثّل هذا الانعكاس في حظوة المَلك العادل بحبّ الناس، فقال في قصيدة أخرى:(٩٩)

أفِضْ في الرَّعَايا العَدْلَ تحْظَ بِحُبِّها وَحَكِّم عَلَيها الحَقَّ في الحَلِّ والعَقْدِ

ويستمرّ في تقديم الإرشادات السياسية حتّى يقول :(١٠٠)

واقبل وَصِيّة مَنْ أتَى لَكَ نَاصِحَاً واشْكُرْهُ وَهوَ الكاذِبُ المَتَحَيِّلُ
وعلى التَّثَبُّتِ في السّعايَةِ فاعْتَمِدْ فَمَرَدُّ أمْرٍ فَاتَ لا يُسْتَسْهَلُ
وإذا جَنَى جَانٍ تَبَيّنَ جَهْلُهُ فاحْلُمْ عَلَيهِ فَأينَ مَنْ لا يَجْهَلُ ؟!
وارْعَ السَّوابِقَ لا تُضِعْهَا إنّها دَيْنٌ يُلامُ لأجْلِهِ مَنْ يَمْطلُ
وإذا تَرَحَّلَ عن جِوَارِكَ رَاحِلٌ فانْظُرْ بِعَقْلِكَ عَنْكَ ماذا يَنقُلُ ؟
واجعلْ على السِّيَرِ التي رَتّبتَها عَيْناً تَجِيءُ بِكُلِّ ما يُتَقَوَّلُ
لا تُبْدِ هَوْناً في الشدائِدِ إنْ عَرَتْ فَبِقَدْرِ ما تُبْدِيْهِ قَدْرُكَ يَخْمُلُ

نلاحظ الحكم السياسية تنساب في قصيدته واحدة تلو الأخرى، انسيابية اقتضتها طبيعة الموضوع، فأمر السياسة يحتاج إلى تتابع الحكم والوصايا بصورة مستمرّة، لأنّه مصير مُلك إمّا بقاء وإمّا سقوط سياسيّ، ومن جملة ما وصّاه به قبول وصية من يأتيه ناصحاً وتقديم الشكر له على نصيحته، أي أنّ ابن الخطيب وعظه بقبول الوصية وليس الأخذ بها، فالناصح قد تخفى وراء نصائحه المكائد والحيل تحت ذريعة "الحرب خدعة" لذا أرشده إلى قطع الشكّ باليقين في ضوء التحقّق من الأمور لمعرفة زيفها من صدقها ثمّ اتّخاذ اللازم وفق ما توصّلت إليه نتيجة التحقّق .

وكذلك وضع العيون على الرعية ليأتوا بكلّ خبرٍ ومقال من أجل ضمان أمن البلاد واستقرارها والقضاء على الفتن والاضطرابات في لحظة نشوبها .

ولاحظنا في ثنايا الأبيات دعوته إلى العفو عن الرعية حينما أمر بالحلم عن المذنب الذي عمل السوء بجهالة ليميّزه عن المذنب عمداً الذي أمر بمعاقبته، فكان لسان الدين مؤثِراً العفو على العقوبة، وممّا ورد من الخبر عنه أنّه كان (محبّاً في العفو حتّى أنّه كان إذا جرى لديه ذِكْر عقوبة الملوك لأتباعهم تشمئزّ نفسه من ذلك ويقول مامعناه : ماضرّهم لو عفوا)(١٠١) .

وأشار في الأبيات السابقة إلى صفة بارزة لابدّ أن يتمتّع بها كلّ سياسيّ، وهو عدم إظهار الضعف والهون عند الأزمات السياسية التي تتعرّض لها الدولة لأنّ هيبة حكمه سوف تزول، وستنظر إليه الرعية بعين الاستصغار وتسوّل لهم النفوس إلى التجرّأ على سلطته، فضلاً عن تحيّن الأعداء هذه اللحظة لحظة الانهزام السياسيّ فينقضّوا عليه ويطيحوا بحكمه .

وبعد نصيحته المَلك بعدم إبداء الهون انتقل إلى موضوع الاقتصاد مبيّناً أثر المال

وادّخاره في خدمة الأغراض السياسية وتمشية أمور البلاد الاقتصادية مع بيان طريقة التصرّف به، إذ قال :(١٠٢)

والمالَ خُذْهُ بِحَقِّهِ واعلَمْ بِأنّ المالَ للغَرَضِ البعيدِ يُوَصِّلُ
وَازِنْ بِهِ مُؤَنَ السياسةِ وادّخِرْ فَضْلاً وَوَازِ بِخَرْجِهِ ما يَدْخُلُ
والمَنْحُ والمَنْعُ اعتَبِرْ قِسْطَاسَهُ فالبُخْلُ والتبذيرُ مِمّا يُرْذَلُ

دعا إلى الوسطية في التصرّف بالأموال والثروات، حيث لا بخل ولا إسراف، ونرى الأثر الإسلامي واضحاً في هذه النظرة السياسية، فالتوسّط في التصرّف المالي قد أرساه القرآن الكريم في قوله جلّ جلاله ﴿ ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلولَةً إلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوْماً مَحْسُوراً ﴾ (الإسراء : ٢٩) .

وختم وصيته بخاتمة دينية تتمثّل بأمره بالتقوى والخُلُق القويم والانشغال بطاعة الله وترك الملذّات والشهوات فقال :(١٠٣)

وَعَلَيْكَ بالتقوى وبالخُلُقِ الذي يَنْهَى النفوسَ عن القبيحِ وَيَعْذِلُ
واشْغَلْ عَنِ اللذّاتِ نَفْسَكَ بِالذي نَفْسُ الكريمِ بِهِ تَلَذُّ وَتُشْغَلُ
وَبَنُو الزَّمَانِ على سَبيلِ أبيهمُ إنْ عَزَّ عزّوا أو يُذَلُّ تَذَلّلوا

أراد ابن الخطيب أن يبيّن اتّباع الرعيةِ المَلكَ في رغباته وميوله وانشغالَها بما هو منشغل به فاستعان بالمثل القائل : (الناس على دين ملوكهم)(١٠٤) لخدمة الغرض، مثلما كان الوليد بن هشام يعنى بالبنيان فكان الناس في زمانه يعنون بالعمران وغرس الأشجار، وكان سليمان بن عبد الملك صاحب طعام ونكاح فكان الناس على عهده يتحدّثون في الأطعمة ويتغالون في النكاح، أمّا في زمن الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز فكان الناس يتساءلون عن حفظ القرآن وصيام الشهر وغيرها من مسائل الدين(١٠٥).

وهكذا بيّن أنّ الملك إذا صلح صلحت رعيته وإذا فسد ضاعت رعيته، وهو في ذلك يسعى إلى إصلاح أمّة بوساطة فردٍ وهو المَلك .

وسُنّة السياسة أنّ لكلّ زمان ملكاً وأمّة، أي أنّ الدولة يتعاقب عليها الملوك واحداً بعد الآخر، وتبقى لكلّ مَلك سيرة يُتكلَّم فيها إمّا حسنة وإمّا سيئة، فبيّن ابن الخطيب أحد الأسباب التي تحقّق للملك نجاحاً عملياً وسيرة حسنة في حياته، وهي ذاتها ستكون تاريخاً له يمجّد بعد ذهابه، إذ قال :(١٠٦)

كُلُّ مَلْكٍ يُرَى بصُحبةِ أهلِ الـ ـعِلْمِ قد بَاءَ بالمَحلِّ العَزِيزِ

. . . . . .

والبَرَايا تَبِيْدُ والمُلْكُ يَفْنَى أين كسرى الملوك مع أبْرَوِيْزِ؟(١٠٧)

إذن الملك الذي يطرق باب العلماء مصاحباً إياهم سيهديه الله إلى ما فيه العزّة والخير، وشرّ

الملك من ابتعد عن سبيل العالم، وكما قيل :(شرّ الأمراء أبعدهم من العلماء وشرّ العلماء أقربهم من الأمراء)(١٠٨) .

ومن حكمه السياسية التي تكشف عن بعض أسباب استقرار الدولة وعيشها بنعماء ما جاء في قوله :(١٠٩)

لا يَسْتلِذُّ العَيْشَ لَيْثُ الشّرَى حتّى يَذُوْدَ الأُسْدَ عَنْ غَابِهِ

فالملك لا يشعر بلذّة حكمه حتّى يزيح خصماءه ويكون وحده المتولّي شؤون البلاد، وبذلك سيسعد وتسعد به رعيته حيث لا صراع على السلطة ولا نزاع ينذر بضعفها ثمّ انهيارها .

وهناك ارتباط وثيق بين الجانب السياسي والجانب العسكري أومى إليه ابن الخطيب، فسيادة الدولة مرهونة بقوّة جيشها لأنّ الجيش من يحفظ استقلال الدولة من كلّ اعتداء خارجيّ أو اضطراب داخليّ، لذلك وجّه الأنظار السياسية إلى العناية بالقوّة العسكرية قائلاً :(١١٠)

وَأَوْجِبْ لأرْبَابِ السَّوَابِقِ حَقَّهَا ولا تَمْنَعِ المَعروفَ مَنْ لَكَ مِنْ جُنْدِ

هُمُ الحَدُّ في نَحْرِ العَدوِّ وَهَل تَرَى دِفَاعاً لِمَنْ يَلْقَى العَدُوَّ بِلا حَدِّ ؟!

وعلى صعيد الحروب وما يقع فيها من استمرار مدّة القتال أياماً وليالي، وقف ابن الخطيب عند هذه الحالة محلّلاً الوضع النفسي للجند وأثر تلك الاستمرارية في تدهوره، فدعا إلى ترقّب النصر وانتظاره في أيّة لحظة قائلاً :(١١١)

وعادةَ النَّصْرِ لا تَسْتَبْطِ مَقْدَمَها إنْ لم تُوَافِكَ في سَبْتٍ ففي أَحَدِ

لأنّ استبطاء النصر يحدث اضطراباً نفسياً عند الجنود يودي إلى فتور عزائم القتال، فالنفوس إذا استبعدت النصر كان الشعور بصعوبة تحقيقه أقرب إليها من الانتصار، والعاقبة انهيار الجيش مولّياً الأدبار، فضلاً عن أنّ خطابه موجّه بالدرجة الأساس إلى قادة الجيوش ووجوب تدريب النفس على الثبات وبثّ روح الانتصار بين المقاتلين لأنّ بخذلان القائد يندحر الجيش برمّته .

الخاتمة

- وهكذا جسّدت الحكمةُ أفكار ابن الخطيب وتأمّلاته، وكانت عبارة عن جملة من التجارب والمواقف المحمّلة بهموم الفكر والمستمدّة إلى جانب تجاربه من تجارب الآخرين مستوعبةً في ذلك معظم جوانب الحياة، فكانت ذات قِيَمٍ روحية واجتماعية وتربوية وأخلاقية وسياسية، وجاءت متداخلةً والأغراض الشعرية من دون أن تأخذ استقلالية لها .
- واتّسمت معظم حِكَمه بالطابع الدينيّ، ويعزى ذلك إلى ثقافته الدينية الواسعة التي جعلت الموروث الإسلامي يأخذ طريقه نحو الحِكَم بصورة تلقائية ولاسيما في موضوعات الدنيا والحياة والموت والقدر فضلاً عن الموضوعات الداعية إلى مكارم الأخلاق وتوحيد الصفّ الاجتماعي وغيرها ممّا تحثّ عليه تعاليم الدين الحنيف .
- ونعلم أنّ الحكمة تتعامل مع الفكر أو الإدراك العقلي، وقد جاءت في موضوع الحبّ مرتبطة بالمشاعر والأحاسيس فنتج عن ذلك حبٌ مُعَقلن وحكمة مصطبغة برقّة العاطفة، بمعنى أنّ الحكمة لا تعني إعمال الفكر فحسب، فقد يتجسّد فيها الامتزاج العقليّ العاطفيّ .
- ويمكن أن نعدّ حكمته في الميدان الاجتماعي وثيقة نقدية بنّاءة لأنّها عرضت في جانبٍ منها بعض المساوئ الاجتماعية وطريقة القضاء عليها وفي الوقت نفسه أرست الأسس القويمة لخلق مجتمعٍ مترابط تسوده الألفة والانسجام .

- وكانت شواهده الشعرية حافلة بأسلوب التوكيد سواء بالحروف (إنَّ، قد، لا النافية للجنس وغيرها) أم بأسلوب

النفي والاستثناء المشتمل على معنى التوكيد، وكلّ تلك التوكيدات تومي إلى أنّ ما يريد إيصاله إلى المتلقّي يعدّ حقائق ثابتة وأحكاماً راسخة لا يعتريها شكّ قد توصّل إليها تأمّله وتفكّره، أمّا أسلوب الشرط فقد كان سمة بارزة على حِكمه لأنّ هذا الأسلوب يخدم غرض الحكمة كثيراً، ففيه يمكن للشاعر أن يعرض في آنٍ واحدٍ وبوساطة فعل الشرط وجوابه التصوّرات الخاطئة وما يقابلها من الأفكار الصائبة فعلى سبيل المثال قال :

إذا كنتُ بالإثراء لي في تملّقٍ رضيتُ بعزّ النفس في عزّ إملاقِ

فالغنى بالتملّق معيبةٌ (فعل الشرط) والنظرة الصائبة عزّة النفس وإن كان الفقر يعذّبها (جواب الشرط).

وبالشرط يمكن الإرشاد إلى سُبل الخير وعوائده المحمودة معاً، من ذلك قوله :

ومن باع ما يفنى بباقٍ مُخلَّدِ فقد أنجح المسعى وقد ربح التجرُ

أو التطرّق إلى موضوع الشرّ ووبال أمره في وقت واحد كما لاحظنا في قوله :

إذا مِقْوَل الإنسان جاوز حدّه تحوّلت الأغراض منكَ إلى الضدِّ

- وفي ضوء النظرة الشمولية لشعر الحكمة فإنّه عبّر عن تجربة عميقة وخبرة طويلة، ولم يكن متكلّفاً القول فيها، فالمطّلع على ديوانه يجد الحكمة تأخذ سبيلها إلى شعره بانسيابية من دون تصنّع .

الهوامش :

١. صحيح البخاري، كتاب الأدب : ١١٢٧ ، رقم الحديث (٦١٤٥)

٢. ينظر: لسان العرب : ١/ ٦٨٨ ، مادة (حكم)

٣. ينظر: تهذيب اللغة : ٤/ ١١٢ ، مادة (حكم)

٤. البصائر والذخائر : ١/ ٤٦٣

٥. ينظر: نفح الطيب : ٧/ ٧٧

٦. ينظر: في الأدب الفلسفيّ : ١١٤

٧. ينظر: ديوان الصيّب والجهام : ١٢٦

٨. الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام : ٣/ ٣٥٣ نقلاً عن ديوان الصيّب والجهام : ١٢٨- ١٢٩ .

٩. الحكمة في الشعر العربي قبل الإسلام (رسالة ماجستير) : ٣٦

١٠. سيكولوجية الإبداع في الفنّ والأدب : ٢٣٤

١١. ديوان الصيب والجهام : ٥٣٢

١٢. نفح الطيب : ٧/ ٨٧

١٣. الإحاطة : ٤/ ٤٩٤

١٤. نفح الطيب : ٧/ ٩٠

١٥. الإحاطة : ٤/ ٦٣٣

١٦. م. ن : ٤/ ٤٩٢

١٧. روضة التعريف بالحب الشريف :٩٤ وينظر: نفح الطيب : ٩ / ١٦

١٨. القصص القرآني في الشعر الأندلسي : ٢٢٥

١٩. روضة التعريف : ١٥٩ وينظر: نفح الطيب : ٩/ ٤٦

٢٠. ديوان الصيب والجهام : ٣٦٠

٢١. م. ن : ٢٥٥

٢٢. روضة التعريف : ١٦١ وينظر: نفح الطيب ٩/ ٤٨

٢٣. روضة التعريف : ١٥٨

٢٤. ديوان الصيب والجهام : ٢٥١

٢٥. م. ن : ٤٣٧

٢٦. الإحاطة : ٣/ ٣٩١ وينظر: نفح الطيب : ٧/ ١٧

٢٧. ثبج كلّ شيء: معظمه ووسطه وأعلاه . لسان العرب : ٣٤٧/١، مادة (ثبج) .

٢٨. نفح الطيب : ٨/ ٣٤١

٢٩. اقتباس من قوله تعالى ﴿ وإِنْ مَسّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ (فصّلت : ٤٩)

٣٠. ديوان الصيب والجهام : ٥٣٤

٣١. قلق الموت : ١٦

٣٢. ديوان الصيب والجهام : ٥٥٩

٣٣. شعر لسان الدين بن الخطيب : ١/ ١٨٥

٣٤. النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين : ١١٣

٣٥. العقد الفريد : ٢٣٤/١

٣٦. نفاضة الجراب في علالة الاغتراب : ١٨٩

٣٧. ديوان الصيب والجهام : ٥٣٢

٣٨. م. ن : ٥٢٩

٣٩. نفاضة الجراب : ١١٠ وينظر: نفح الطيب : ٧/ ١٤١

٤٠. ديوان الصيب والجهام : ٢٦٠

٤١. م. ن : ٤٤٨

٤٢. الإحاطة : ٤/ ٤٨٦

٤٣. نفاضة الجراب : ١٤٧ وينظر: نفح الطيب : ٨/ ٣٥٢

٤٤. ديوان الصيب والجهام : ٣٠٢

٤٥. م. ن : ٥٩٧

٤٦. م. ن : ٣٠٢ - ٣٠٣

٤٧. م. ن : ٤٣٩

٤٨. م. ن : ٤١٢

٤٩. م. ن : ٣٩٢

٥٠. م. ن : ٤٣١

٥١. ينظر: النزعة الفلسفية في الشعر الأندلسي (رسالة ماجستير) : ٧٨ وينظر: المنحى الفلسفي في النثر الأندلسي (رسالة ماجستير) : ٥٣

٥٢. نفح الطيب : ٨/ ١٥٦

٥٣. م. ن : ٧/ ٨٨

٥٤. ديوان الصيب والجهام : ٢٨٤

٥٥. م. ن : ٤٦٨

٥٦. ديوان الصيب والجهام : ٥٧٢

٥٧. م. ن : ٢٥١

٥٨. م. ن : ٢٨٤

٥٩. نفاضة الجراب : ٢٨٧ وينظر: نفح الطيب : ٩ /٢٠٥

٦٠. ديوان الصيب والجهام : ٣٥٥

٦١. م. ن : ٤٠٨

٦٢. م. ن : ٦١٧

٦٣. م. ن : ٤٠٨

٦٤. ديوان عمارة بن عقيل : ٨٢

٦٥. نفح الطيب : ٩/ ٢٣١

٦٦. الإحاطة : ٤/ ٤٨٩

٦٧. روضة التعريف : ٣٧٣

٦٨. الإحاطة : ٤/ ٥٢٤

٦٩. م. ن : ٤/ ٥٢٤

٧٠. ديوان الصيب والجهام : ٥٤٩

٧١. م. ن : ٢٥٥

٧٢. م. ن : ٢٥٥- ٢٥٦

٧٣. رسالة الصداقة والصديق : ٦

٧٤. ديوان الصيب والجهام : ٦٩

٧٥. شعر لسان الدين بن الخطيب : ١/ ٤٥

٧٦. ديوان الصيب والجهام : ٢٥٦

٧٧. م. ن : ٤٦١

٧٨. م. ن : ٣٣٩

٧٩. م. ن : ٣٨٧

٨٠. نفاضة الجراب : ٢٨٩

٨١. ديوان الصيب والجهام : ٢٥٣

٨٢. م. ن : ٥٦٥

٨٣. نفاضة الجراب : ١٢٩

٨٤. الإحاطة : ٤/ ٣٣٨ وينظر: نفح الطيب : ٧/ ٨٥

٨٥. ديوان الصيب والجهام : ٥٣٧

٨٦. م. ن : ٥٧٥

٨٧. م. ن : ٥٤١

٨٨. نفاضة الجراب : ٣٨٣

٨٩. نفح الطيب : ٩/ ٢١٢

٩٠. الامتاع والمؤانسة : ٣/ ٨٥

٩١. م. ن : ٢/ ٤٩

٩٢. شعر لسان الدين بن الخطيب : ١/ ٢١٨

٩٣. الفجّ من كلّ شيء مالم ينضج..والفجّ النيء. لسان العرب:١٠٥٣/٢، مادة (فجج).

٩٤. ديوان الصيب والجهام : ٢٩٣

٩٥. نفاضة الجراب : ٢٩٥

٩٦. ديوان الصيب والجهام : ٢٩٣

٩٧. نفاضة الجراب : ٢٩٥

٩٨. ديوان الصيب والجهام : ٤٣٧

٩٩. م. ن : ٤٣٦

١٠٠. نفاضة الجراب : ٢٩٦

١٠١. نفح الطيب : ٧/ ١٨١

١٠٢. نفاضة الجراب: ٢٩٦

١٠٣. م. ن : ٢٩٦

١٠٤. التمثيل والمحاضرة : ١٣١

١٠٥. ينظر: المستطرف في كلّ فنّ مستظرف : ١/ ١٥٣

١٠٦. نفاضة الجراب : ١٦٤

١٠٧. أبرَوَيْز : بفتح الواو وكسرها، وباؤه فارسية، وهو ملك من ملوك الفرس، وقيل: هو كسرى الذي كتب إليه الرسول محمّد (عليه الصلاة والسلام)، ومعناه عندهم : المُظفَّر. ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس : ٤/ ٧ ، مادة (برز) .

١٠٨. بهجة المَجالس وأنس المُجالس وشحذ الذاهن والهاجس : ٣٣٢

١٠٩. ديوان الصيب والجهام : ٢٩٣

١١٠. م. ن : ٤٣٦

١١١. م. ن : ٤١١

المصادر :

* **القرآن الكريم .**

١١٢. **الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب(ت٧٧٦هـ)، تحقيق: محمّد عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي: مج٣ : ط١- ١٩٧٥م ، مج٤ : ط١- ١٩٧٧م**

١١٣. **الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي (ت ٤٠٠هـ)، صحّحه وضبطه : أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، (د.ت) .**

١١٤. **البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي، تحقيق وتعليق : د. إبراهيم الكيلاني، دمشق، مكتبة أطلس، مطبعة الإنشاء، ١٩٦٤م .**

١١٥. **بهجة المجالس وأنس المُجالس وشحذ الذاهن والهاجس، أبوعمر يوسف بن عبد الله بن محمّد بن عبد البرّ القرطبي(ت٤٦٣هـ)، تحقيق : محمّد مرسي الخولي، مراجعة : د. عبد القادر القط، الدار المصرية للتأليف والترجمة، دار الجيل للطباعة، ١٩٦٢م**

١١٦. **تاج العروس من جواهر القاموس، محبّ الدين أبوالفيض السيد محمّد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، مصر، المطبعة الخيرية، ط١- ١٣٠٦هـ .**

١١٧. **التمثيل والمحاضرة، أبو منصور عبد الملك بن محمّد بن إسماعيل الثعالبي (ت٤٢٩هـ) ، تحقيق : عبد الفتّاح محمّد الحلو، الدار العربية للكتاب ، ط٢- ١٩٨٣م .**

١١٨. **تهذيب اللغة، أبو منصور محمّد بن أحمد الأزهري (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق : أ. عبد الكريم العزباوي، مراجعة : أ. محمّد علي النجّار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب، (د.ت) .**

١١٩. **ديوان الصيّب والجهام والماضي والكهام، لسان الدين بن الخطيب، دراسة وتحقيق: محمّد الشريف قاهر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٣م .**

١٢٠. **ديوان عمارة بن عقيل (ت ٢٣٩هـ)، جمعه وحققه : شاكر العاشور، بغداد، ساعدت وزارة الإعلام على نشره، مطبعة البصرة، ط١- ١٩٧٣م .**

١٢١. **رسالة الصداقة والصديق، أبو حيّان التوحيدي (ت ٤٠٠هـ)، تحقيق : د. إبراهيم الكيلاني، دمشق، دار الفكر، ١٩٦٤م .**

١٢٢. **روضة التعريف بالحُبّ الشريف، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا، دار الفكر العربيّ، دار العهد الجديد للطباعة، ط١- ١٩٦٨م .**

١٢٣. سيكولوجية الإبداع في الفنّ والأدب، يوسف ميخائيل أسعد، بغداد، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، مطابع دار الشؤون الثقافيّة العامّة، ١٩٨٤م .
١٢٤. شعر لسان الدين بن الخطيب السلماني، جمعه وحقّقه وقدّم له : محمّد مفتاح، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٣م .
١٢٥. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردْزبة البخاري الجُعفي (ت ٢٥٦هـ)، ضبط النّصّ : محمود محمّد محمود حسن نصّار، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط٢ - ٢٠٠٢م .
١٢٦. العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمّد بن عبد ربّه الأندلسي (ت٣٢٨هـ)، تحقيق : د. محمّد التونجي، بيروت، دار صادر، ط١ – ٢٠٠١م .
١٢٧. في الأدب الفلسفي ، د. محمّد شفيق شيا، بيروت، مؤسسة نوفل ، ط١– ١٩٨٠م .
١٢٨. القصص القرآني في الشعر الأندلسي، د. أحمد حاجم الربيعي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١ - ٢٠٠١م .
١٢٩. قلق الموت، د. أحمد محمّد عبد الخالق، سلسلة عالم المعرفة(١١١)،الكويت، ١٩٨٧م
١٣٠. لسان العرب، جمال الدين محمّد بن مكرم بن علي بن منظور(ت٧١١هـ)، إعداد : يوسف خيّاط ، نديم مرعشلي، بيروت، دار لسان العرب، (د.ت) .
١٣١. المستطرف في كلّ فنّ مستظرف، شهاب الدين محمّد بن أحمد الأبشيهي (ت٨٥٠هـ)، بيروت، دار الندى للطباعة والنشر والتوزيع، ط١ - ٢٠٠٤م .
١٣٢. النثر الأندلسيّ في عصر الطوائف والمرابطين، د. حازم عبد الله خضر، بغداد، دار الرشيد للنشر، دار الحرّيّة للطباعة، ١٩٨١م .
١٣٣. نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، لسان الدين بن الخطيب، تعليق : د.أحمد مختار العبادي، مراجعة: د.عبد العزيزالأهواني، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، (د.ت)
١٣٤. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، أحمد بن محمّد المقري التلمساني (١٠٤١هـ)، حققه ووضع فهارسه : محمّد البقاعي، بيروت، دار الفكر، ط١ - ١٩٨٦م .

الرسائل الجامعية :

١. الحكمة في الشعر العربي قبل الإسلام (رسالة ماجستير)، إبراهيم علي شكر، جامعة بغداد، كلّيّة الآداب، ١٩٨٧م .

٢. المنحى الفلسفي في النثر الأندلسي (رسالة ماجستير)، محمّد عبد الأمير جاسم العبيدي، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، ٢٠٠٦م .
٣. النزعة الفلسفيّة في الشعر الأندلسيّ (رسالة ماجستير)، مُحمّد جبّار علوان الخزرجي، الجامعة المستنصريّة، كلّيّة الآداب، ٢٠٠٢م .